

المدينة الكلاسيكية في الغرب والشرق

د. نقولا زباد

١٠

يبدو من دراسة حضارات الفترة المتأخرة من الألف الثاني قبل الميلاد، أن مناطق حوض البحر المتوسط، وامتدادها الشرقي، بشكل خاص، كانت تتجه المجتمعات والجماعات القاطنة فيها، إلى إقامة تجمعات تدور حياتها حول قلعة أو قصر أو معبد، يقوم حولها، مع الزمن، سور وتحصينات تدفع عنها عادية المغيرين. ويخيل إلينا أن الباعث على اتخاذ هذا النمط من المعيشة، هو هذا الغزو المستمر والهجرة المتلاحقة من المناطق المجاورة لحوض البحر المتوسط. إذ إن الصحراء والبادية اللتين تحيطان بموضه من الشرق والجنوب كانتا تقذفان نحوه، بين الفينة والفينة، بما تعجزان عن إطعامه من شعوبها، فتقع المصيبة على السكان فيه. ومن ثم فقد يكون لهم من السور والتحصينات ما قد يقيهم الكوارث. أما المناطق الواقعة إلى الشمال الشرقي والشرق من البحر المتوسط، فقد كانت جبلية، وكانت، من ثم، تقذف بما ينضاف إليها من بشر لا يمكنها إعالتهم. ولم يكن هؤلاء أقل ضرراً من القادمين من الصحاري. ولذلك فالدفاع عن النفس - داخل سور وحصون - كان أمراً طبيعياً.

أما من وجهة نظر الجماعة، التي كانت تقيم في المدينة أو البلدة (الكلمة اليونانية هي بوليس Polis)؛ فالمهم هو أن يكون ثمة مركز تقام فيه الأبنية الدينية والمدنية، ويتجمع فيه المواطنون عند الحاجة، وهو الذي كان يسمى **الأغورا** (agora)، وهو المعنى الأصلي للكلمة. وكان لبعض المدن **أكروبوليس** (acropolis) هو المكان المرتفع الذي تتكئ المدينة إليه، كأنه القلعة!

وهذه المدينة الكلاسيكية الإغريقية (الهلينية) الأولى، هي التي ورثت بعض ما كان في العالم الإيجي، وخاصة في ميكاني (في البر الأصلي) وفي كنوسوس (في كريت)، وإن لم يكن انتقال هذا الإرث مباشراً، إذ إن

الدورين، الذين هاجوا العالم الإيجي من الشمال حوالى سنة (١٢٠٠)، لم يتركوا كثيراً من المدن قائمة ليُنسَجَ على منوالها.

والى جانب هذه المدينة المحدودة، كان هناك «مدن» مثل: اسبارطة، حيث كان سكانها يقيمون في قرى، كما كان ثمة صنف ثالث من المدن، كان السكان موزعين فيه بين قطاع مدني وجماعات فلاحية تقم في الريف. والذي يجب ألا يغرب عن البال، هو أنه مهما كان النموذج الذي نشأ في مكان معين، وبقطع النظر عن المساحة، فإن السكان بأجمعهم، مدنيين وريفين، كانوا يُعتبرون وحدة، لا فئتين متصارعتين متنازعتين. وقد كانت تربط بين هؤلاء - بالإضافة إلى الرباط الاقتصادي وإلى الحكم - وشائج سيكولوجية بحيث كانوا يشعرون بوحدة تقوُّمها التقاليد، الأسطوري منها والتاريخي، والعرى الدينية الطقسية. فبالنسبة إلى الإغريقي القديم، كانت أثينا بقعة جغرافية محدودة، أمّا التعبير عن أثينا كوحدة سياسية، فكان يقتضيه أن يقول: «الاثنيون».

وكانت هذه «الجماعة» هي التي يحق لها وحدها أن تعتبر وجودها حقيقة. فالسلطة التي كانت للملوك والقادة والزعماء، انحصرت عنهم (في القرن الثامن ق. م) إلى الفئات أو العائلات الأرستقراطية التي احتكرت أكثر الأرضين، وأخذت تحكم حيناً، عبر مؤسسات ومجالس وموظفين، وأحياناً أخرى عن طريق توثيق علاقات بين الفئات أو الأسر، وما إلى ذلك.

إن حضارة البحر الإيجي (في البر الأصلي وفي الجزر) كانت حضارة أرستقراطية في تنظيمها وسيورها. فالأبنية الفخمة والضخمة كانت القصور والدور الكبيرة التي شيدها الحكام. فنحن إذا قارنا بين قصر الثري والبيوت العادية التي كان يقطنها الصناع في غورينا (شرق كريت) مثلاً، وجدنا الثانية غرماً وقاعات وصحوناً التصقت أجزاءها ببعضها البعض، خبط عشواء، وقامت على جوانب أزقة متعرجة، تدور بالدار المركزية - قصر ولي الأمر. وهذه الحضارة، في جوهرها، تختلف عن الحضارة الكلاسيكية الإغريقية. فإذا أضفنا إلى ذلك الانقطاع بين الحضارتين، الذي جاء بسبب تدمير الدورين لمعالم الحضارة الأقدم، أدركنا لماذا كان التأثير الإغريقي بالإيجيين محدوداً. فثمة تشابه بين قصر الحاكم الميكاني وقلب المدينة الإغريقية في أثينا، ولم يكن هذا وليد المصادفة، ومثل ذلك يقال عن الهياكل الإغريقية والمعابد الإيجية.

لكن، ثمة مدينتان - يعود إنشاؤها إلى القرن العاشر ق. م - حافظتا نسبياً على التقليد الإيجي، وهما: ميليتوس وازمير (القديمة). ويبدو أن الذين قاموا بهذا العمل كانوا من فر من وجه الدورين، فلجأوا إلى أيونيا، في غرب آسيا الصغرى. وهنا، وقع هؤلاء الأغارقة اللاجئون، تحت تأثير حضارات أقدم وأغنى، جاءهم عن طريق آسيا الصغرى أولاً، ثم عن طريق الاتصال المباشر، لما قامت بينهم وبين قبرص ومصر وبلاد الشام وأرض الرافدين علاقات مباشرة. ولم يصل الأغارقة إلى القرن الثامن حتى كانت مدينتهم الغضة الناشئة،

تقع تحت تأثير المدنيات الشرقية في الصناعة والفن المعماري (الفينيقي والفلسطيني) وفي غير ذلك. ولعل أنفع ما نفع به المشرق الأغارقة في تلك الفترة، هو حروف الهجاء (الفينيقية) التي كانت أنسب بكثير لتدوين اللغة الإغريقية من الكتابة الإيجية الأقدم عهداً.

والمدينة الإغريقية، في دلالتها الكلاسيكية، كانت تعني «دولة تحكم نفسها بنفسها»، ومن هنا تسميتها بالمدينة - الدولة. وقد كانت المدينة - الدولة صغيرة في مساحتها. فأثينا، وهي أكبرها، كانت مساحتها نحو (٢٥٠٠ كم^٢). ومن الخطأ الظن بأن مدينة أثينا كانت تحكم الريف التابع لها. إذ إن سكان الريف والمدينة الأحرار كانوا يحكمون المدينة - الدولة بكاملها. وقد كان ثمة بعض من المدن - الدول على شاكلة أثينا. كما أنه كان هناك مدن ودول أخرى لم يكن فيها «مدن» قط، مثل أركاديا. ولعل خير ما يدلنا على صغر هذه المدن - الدول، هو أن نضع بين يدي القارئ بضعة أرقام للسكان، وهي أرقام تقديرية، إذ ليس لدينا إحصاءات دقيقة: فأثينا كانت (سنة ٤٣١ ق. م) تعد بين (٢٥٠,٠٠٠) و (٢٧٥,٠٠٠) نسمة، يدخل في عدادهم الرجال والنساء والصغار، الأحرار والعبيد. وكان عدد سكان كورنث (وهي مدينة غنية بتجارها) نحو (٩٠,٠٠٠). أما طيبة وأرغوس وكوركيرو وأكراغاس، فكان سكان كل منها بين (٤٠,٠٠٠) و (٦٠,٠٠٠). وكانت البقية الباقية من المدن يقل عدد سكانها عن ذلك، بحيث كان العديد منها لا يقطن في الواحدة سوى خمسة آلاف نسمة.

ولعل من المفيد أن ننقل هنا، ما جاء في كتاب السياسة لأرسطو، إذ قال، بأن الدولة التي يتجاوز عدد سكانها الحد المعقول، لا تكون مدينة «حقيقية»، إذ لن تتمكن من أن يكون لها دستور حقيقي. فالمدينة - الدولة لم تكن «مكاناً» مع أنها كانت تشغل رقعة محدّدة، بل كانت شعباً يعمل متعاوناً. ومن ثم فإنه كان من الضروري أن يتمكنوا من الاجتماع لمواجهة مشكلاتهم مباشرة. ولذلك، فقد كان هذا (أي العدد الصغير من السكان)، شرطاً أساسياً للمدينة - الدولة كي تحكم نفسها بنفسها.

ومنذ أواسط القرن الثامن ق. م، أخذت المدن - الدول الإغريقية تقذف بأعداد من سكانها إلى شطآن البحر المتوسط وجزره، وسواحل البحر الأسود، لتتخلص من النمو السكاني الذي كان يزيد في أعداد سكان المدينة. وهكذا، ففي القرن السادس ق. م، مثلاً، كانت قد قامت عشرات من المدن الإغريقية الأصل والمدينة في تلك الربوع، بالإضافة إلى المدن الأيونية بالذات ومدن البر الأصلي نفسه.

ونحن، إذا أخذنا العناصر الطبيعية التي كانت تتكوّن منها المدينة اليونانية كما تطوّرت في الفترة الكلاسيكية، لوجدنا أنها كانت تشمل، قبل كل شيء، الأغورا التي أصبحت، بالإضافة إلى وظيفتها الأصلية كمكان للاجتماع - السوق الرئيسية والمكان الذي تقام فيه الحفلات. وقد أقيمت فيها وحولها، مع مرور الزمن،

المباني اللازمة للمؤسسات الحكومية وما شابه ذلك . فقام البوليتيريون (bouleuterion)، حيث كان المجلس يُعقد؛ ومكاتب الموظفين، والمعاد والأروقة المسقوفة حيث يلتقي المواطنون والتجار . وقد نُقلت بعض النشاطات فيما بعد إلى خارج الأغورا، مثل التمثيل الذي نقل إلى مسرح ديونسيوس . إلا أن الأغورا ظلت قلب المدينة الخفاق .

وكان الاكروبوليس العنصر الثاني المهم في المدينة . فأثينا مثلاً، كان لها قلعتها (وهي قصر الملك أصلاً) في الاكروبوليس . وقد بُني الهيكل الكبير هناك فيما بعد . وقد قامت أبنية كثيرة، دينية ومدنية، كان لكل منها وظيفتها الخاصة . لكن ما ينطبق على أثينا لا يجري حكماً على المدن الأخرى وخاصة الصغيرة منها . فالجمنازيوم، مركز التعلم والرياضة، لم يوجد في كل مدينة، مع أنه كان من مفاخر أثينا . ومن المهم أن نذكر أن هذا النمو التدريجي للمدينة الإغريقية نتج عنه نقص في انتظام المدينة عموماً، إلا المدن التي أنشئت من جديد، فلها قصة أخرى .

٢ .

في الوقت الذي كانت فيه « المدينة » تتقوى جذورها من جديد في البر اليوناني الأصلي، منذ القرن الثامن ق . م ، كانت الجماعات اليونانية التي قذفت بها المدن الأمهات، إلى شواطئ الحوض الغربي للبحر المتوسط، تبحث عن أماكن تستقر فيها . وقد كان الفينيقيون قد استقروا في الجزء الأكبر من الساحل الأفريقي الشمالي، وفي صقلية (في غربها وجنوبها)، وحتى في سواحل إيبيريا . وكان الأترسكيون قد أقاموا لهم سلطاناً في الأجزاء الشمالية الغربية من إيطاليا (توسكانية) . وكانت روما قد تقوّت وركزت أمورها (ولو تحت نفوذ اتوسكي) في لاثيوم وما إليها . فلم يكن أمام المهاجرين الأغارقة إلا الاستيطان في شرق صقلية وجنوب إيطاليا (مع التوسّع فيما بعد، في مسيليا - مرسيليا وما إليها) .

والإغريقي الذي ألف المدينة سكناً ومعاشاً وحياة وحكماً وتشريعاً وفلسفة، عمل على إنشاء مدن في هذه البقاع التي استقر فيها . ويجدر بنا أن نتذكر، ونحن نتحدث عن هذه المدن أو نفكر بها، بالنسبة إلى موضوعنا أصلاً، أن الأغارقة خرجوا إلى العالم الواسع باحثين عن الرزق وعن طريق الأرض أولاً وقبل كل شيء . ولما كانت أكثر المدن التي أنشأوها قريبة من البحر، فقد انضاف البحر إلى وسائل الرزق والارتزاق . وكان هؤلاء الأغارقة حريصين على أن تتوسط مدينتهم الجديدة المنشآت التي ألفوها في المدينة الأم، وكان من الطبيعي أن تتأثر المدن المبنية حديثاً، ولو على درجات متفاوتة، بهذا الدفق القوي والتحراك المستمر بين مدنيات ثلاث التقت في تلك الأصقاع: الإغريقية والفينيقية (القرطاجية) والأترسكية . ولعل تجربة مدينة كابوا (في السهول

الغربية الوسطى لإيطاليا) حرية بالتذكر، إذ إنه إلى سنة (٥٧٤ ق. م) كان الأغارقة والأترسكيون يتجاورون في المدينة، والفريق الواحد يقتبس عن الفريق الآخر مما عنده، بما في ذلك « المدينة » بالذات .

وبسبب ما تكون عليه الأراضي في المنطقة التي كانت المدينة ستقام فيها، كان يستتبع القرار وتجربة الإقامة، مسح للمنطقة، لتحديد المزدرع من الأرض والشاطئ المحيط بالميناء إن وُجد، واختيار مكان « المدينة ». وعندها كانت المدينة - بدءاً من أواسط القرن الثامن ق. م ، وتزايداً في الأمر على مر القرون - تُخطّط متعامدة الشوارع والطرق، مقطّعة مستطيلات متشابهة، إن لم تكن متائلة، لإقامة أماكن السكن. وفي وسط « المدينة » (أي المخطط) أو في أي مكان مناسب، على أن لا يكون بعيداً عن جماعة دون جماعة، كانت تُترك فسحة متسعة، لتقوم عندما يتيسر ذلك؛ وبالتدرّج زمنياً، المباني اللازمة « للمدينة » - الأغورا، والمهيكل، والرواق (أو أكثر من رواق واحد). وهذا يبدو واضحاً في كثير من المدن التي قامت في تلك الربوع مثل ميغارا هبلايا في صقلية (بنيت ٧٥٣ ق. م. وهدمت ٤٨٣ ق. م)، التي كانت في عزّها بين (٦٥٠ ق. م) وسنة تدميرها. فقد كان الاختيار أصلاً للأرض الخصبة، ورتبت أمور المدينة على أساس ذلك. وثمة مدن كثيرة قامت في القرون، الثامن والسابع والسادس والخامس، وهي تتفق في التخطيط العام، وإن كانت تختلف في التفاصيل، حتى في الأغورا. ومن أمثلة المدن الإغريقية في إيطاليا بوزيدونيا (القرن السادس ق. م) وميتابونتوم وهركليّا (القرن الخامس ق. م) ونيابولس (نابلي) من القرن ذاته. وفي صقلية نجد أكراغاس (القرن السادس - الخامس).

وقد كان ثمة من يرى، أن هذه المدينة المتعامدة، التي يعود وجودها إلى الأغارقة، قد اكتشفها الأترسكيون أيضاً، إلى أن عمل الرفش والمحول طويلاً في كابوا (المرار ذكرها) وفي مرزبوتو على مقربة من بولونيا (هذه الأخيرة مدينة تعامد أيضاً)؛ وكل من كابوا ومرزبوتو كانت مدينة توسع واستعمار، وكل منهما أيضاً كان لها اتصال بالإغريق، مباشر : (كابوا)، أو غير مباشر: (مرزبوتو). وكل منهما كان لها اهتمام بالأرض المزدعة وتوسيعها إن أمكن، وبالطرق البرية. ومن ثم فقد أخذ الباحثون يتجهون نحو القول بأن المدينة التعامدية كانت إغريقية الأصل، نقلها - بتحفظ ومع التعديل اللازم - الأترسكيون في فترة ما بين القرن السابع والخامس ق. م.

وجاء دور روما. وقد كان تطورها الأول، كمدينة، متأثراً بجيرانها من الأغارقة والأترسكيين الذين كانوا أعلى كعباً منها في المدينة، ثم أخذت هي، منذ القرن الخامس ق. م ، تتوسع وتتحكّم في مصير اللاتين والإيطاليين، وفرضت عليهم نموذجها الخاص « للمدينة ». ومع ذلك فالتطوّر المدني بين الأغارقة والرومان متشابه في خطوطه العامة. ويعود ذلك إلى أمور أربعة:

أولها، أن الشعبين كانا قد ألفا، منذ البدء، أن تكون المدينة هي الوحدة السياسية والاجتماعية الطبيعية. وثانيها، أن الشعبين، بعد أن اجتازا الدور المبكر من وجودها، قاما بإنشاء مدن جديدة في البلاد التي توسعا فيها أو احتلّاها.

وثالثها، أن المستاحين الذين خططوا المدن كانوا، سواء في ذلك الرومان والأغارقة، يعتمدون اختبارات وتجارب هي إغريقية في أصلها وتعابيرها.

ورابعها، أن الشعبين - في بلادهم الأصلية وفي البلاد التي احتلّاها فيما بعد وخاصة في المشرق - كانا وريثي تقليد تاريخي متشابه، حتى إن عمل الرومان في « رومّة المشرق » كان تنمّة لعملية « الهلّينة » (في المناطق ذاتها)، التي جاءت بعد فتوح الاسكندر. فالإنجازات « المدنية » للرومان في إنشاء المدن كانت قاعدتها الأساسية التجربة الإغريقية، النظرية والعملية.

في أواخر القرن السادس قبل الميلاد ولد هبّوداموس في ميليتوس في أيونيا (غرب آسيا الصغرى)، وهي واحدة من المدن الأولى التي أنشأها الأغارقة، الذين هربوا أمام الغزو الدوري لبلادهم، على نحو ما مر بنا. ويعود إنشاء ميليتوس إلى القرن العاشر ق. م.

والعصر الذي عاش فيه هبّوداموس، كان عصرًا تعرف فيه الأغارقة إلى العلوم، ومنها الهندسة. وكان الجو يشجع على بناء المدن على أساس من التخطيط. وهذا هيرودوتس (حكم ٤٨٥ - ٤٢٥ ق. م) يصف بابل الجديدة التي بناها نبوخذ نصر (حكم ٦٠٥ - ٥٦٢ ق. م)، فيقول عنها: إنها كانت تقطعها شوارع مستقيمة، بعضها مواز للنهر والبعض الآخر يتعامد معه. ومن ثم فمن الطبيعي أن يُقبل الأغارقة على التخطيط التعامدي الذي دعا إليه هبّوداموس.

والمدينة الأولى التي خططها هبّوداموس، هي مدينة ميليتوس، بعد هزيمة الفرس (٤٧٩ ق. م) إذ إنها تهدمت في كثير من أجزائها. فاعتمد المهندس الخطة التعامدية الدقيقة، في قسميها، وترك بين الأجزاء المخصصة لإقامة المنازل المتشابهة فسحة للأبنية العامة المدنية والتجارية والدينية. وقد عني بأن تكون هذه كلها يسيرة الاتصال بالميناءين. والسور الذي كان يحيط بالمدينة لم يكن متصلًا عضوياً بالخطط العام. وكان ثمة الأكروبوليس، أي القلعة، للدفاع عن المدينة، وكانت تقع خارجها. ومع أن المدينة لم تتم أبنيته، العامة والخاصة، إلّا بعد أجيال، فإن ثراءها أدّى إلى نموّها، فتم لها ذلك في إطار المخطط الذي وضعه هبّوداموس. والأغورا لم تُبنَ بكاملها إلّا بعد نحو قرن من تأسيس المدينة الجديدة.

وثمة مدينتان أخريان، عمل هبّوداموس في بنائهما وهما: بيريه ميناء أثينا (٤٧٥ - ٤٥٠ ق. م) وتوري

في جنوب إيطاليا (٤٤٤ - ٤٤٣ ق. م) . أما المدن التي بنيت بتأثير المهندس هبوداموس ، وحتى بعد وفاته ، فدخل في عدادها رودس (٤٠٨ - ٤٠٧ ق. م) و كيندُس (أو نيدوس في جنوب غرب آسيا الصغرى) المعاصرة لها . وهاتان المدينتان من أفضل الأمثلة على هندسة هبوداموس .

ومثل هذه المدن ، في اعتمادها هذا التخطيط المتعامد ، كانت تستجيب إلى رغبة الأغارقة في أن أعمالهم كانت متساوقة متنسقة متناسقة . ولأن الأغارقة منطقيون في تفكيرهم ، فقد كانوا أيضاً منظمين في مدنها . والمهندسة هي منطقهم على الأرض . ومع أننا ، لا نتحدث أصلاً عن الدور الذي تم على يد هبوداموس في هذه القضية ، فإنه لا بد من الإشارة إلى شبه أسطورة تحيط بالرجل ؛ إذ إن القصة الإغريقية المتواترة ، هي أن هبوداموس هو « مخترع » المدينة المتعامدة . ولكننا رأينا أن عالم الأغارقة في الغرب عرف مدناً فيها « تعامد » ، قبل ميلاد هذا المهندس . وإذن فما الذي تم على يده ؟ ، يبدو ، من الدراسات التي دارت حوله وحول المدن التي خطط لها أو تأثرت بتخطيطه ، هو أن هبوداموس نظم هذه المعرفة التي كانت متناثرة هنا وهناك ، وأقامها على أسس من علم الهندسة قديمة وثابتة . يضاف إلى هذا ، على ما يبدو ، أنه نظر إلى المدينة الإغريقية باعتبارها وعاء يتسع لسكانها ، على أنهم طبقات من الجهة الواحدة ، وعلى أن المدينة هي وحدة السياسة والمجتمع والعمل واللاهوت والعبادة أمام الواحدات (أي المدن) الأخرى .

ومن هنا كان أثره في العالم الإغريقي الكلاسيكي ، لا في البر الأصلي (حيث جُددت المدن) ، وحده ، ولكن في أيونيا وفي صقلية وإيطاليا ، وفي المدن التي قامت فيها بعد سيطرة روما . ثم لما فتح الأغارقة المشرق ، وبنوا فيه المدن ، كان لهبوداموس وآرائه ، بعد تطويرها ، أثر في هذا البناء .

٣ .

كانت فتوح الإسكندر لبلاد المشرق - من آسيا الصغرى إلى بلاد الشام ومصر وأرض الرافدين - حدثاً هاماً في تاريخ هذه البلاد . ومع أن الاسكندر وصل بفتوحه إلى حوض السند وأواسط آسيا ، فإن هذه المنطقة الشرقية لا تعنينا تماماً في هذا المقال .

وبعد وفاة الاسكندر (٣٢٣ ق. م) دبَّ الخلاف بين قواده . فمنهم من أراد أن يحافظ على وحدة الإمبراطورية الشاسعة ، مثل انتيفونوس ، على أن يكون هو الوريث ؛ ومنهم من رغب في أن يتولّى شؤون جزء من الإمبراطورية ، بقطع النظر عن يترأس ، ومن هؤلاء بطليموس الذي استقر في مصر حاكماً أولاً ثم ملكاً مؤسساً لأسرة البطالمة هناك . وعلى كل ، فجميع محاولات التوحيد ذهبت أدراج الرياح ، وانتهى الأمر ، بالنسبة إلى المشرق ، أن قامت فيه دولة السلوقيين ودولة البطالمة والأثاليون . أمّا الأثاليون ، فقد اتخذوا بروجامُس

عاصمة لهم، وجربوا أن يبتعدوا عن الخصومات ما أمكنهم. والبطالة، كانت لهم مصر، إلى حوالى سنة (٢٠٠ ق. م). كانوا يتحكمون في شؤون فينيقيا وفلسطين والأردن (إلى أن انتزعها منهم السلوقيون). أما السلوقيون، فقد اعتبروا أنفسهم حكام الرقعة الآسيوية من البحر المتوسط إلى أواسط آسيا. إلا أن الأمر انتهى بهم إلى أن تقلص نفوذهم إلى بلاد الشام وجزء من أرض الرافدين في شمال البلاد (وحتى هذا استولى عليه الفرثيون منذ حوالى أواسط القرن الثاني ق. م).

بنى الاسكندر مدناً كثيرة، وأسكنها بعض جنوده ومهاجرة الإغريق والمقدونيين. لكن أكثر المدن التي يعود إنشاؤها إلى الإسكندر، كانت في إيران وما إلى الشرق منها. أما في الرقعة التي نحن معنيون بها الآن، فالمدينة الوحيدة التي اختطها وأشرف على وضع الأسس لها، هي مدينة الاسكندرية المصرية. والبطالة لم يكونوا بناء مدن. فهم قد اهتموا بالاسكندرية اهتماماً يفوق الوصف. وبذلوا بعض العناية لمدينة فيوكراتس (في غرب الدلتا) التي كانت قد أنشئت في عصر التوسع اليوناني في القرن السابع ق. م؛ كما أنهم بنوا مدينة بطوليمائوس في مصر العليا، وذلك كي تكون نداءً لمدينة طيبة الفرعونية القديمة (عاصمة الإمبراطورية في القرن الخامس عشر ق. م).

أما المنطقة التي عرفت المدن (على اختلاف درجاتها وأنواعها) في العصر الهلينستي، فهي آسيا الصغرى وبلاد الشام، وبشكل خاص في المملكة السلوقية.

وقبل أن نتحدث عن هذه المدن، نود أن نضع أمام القارئ بعض ملاحظات، قد تكون فيها فائدة في توضيح ما تم في المنطقة (وهذه تنطبق على السلوقيين بشكل خاص):

أولاً - كانت الغاية الأولى من إقامة هذه المستوطنات (المدن وغيرها) عسكرية حربية؛ أي الحفاظ على البلاد التي ظلت بأيدي السلوقيين، والسيطرة على الطرق التجارية التي كانت تحمل عليها المتاجر من أواسط آسيا (براً) ومن الهند وما إليها (بحراً عبر الخليج العربي)، كما كانت تنقل عليها المتاجر إلى تلك الأصقاع.

ثانياً - عني بناء هذه المستوطنات (المدن وغيرها) أن يكون سكانها أغارقة ومقدونيين، وذلك لسببين: الأول، اطمئنان ملوك السلوقيين إلى هؤلاء الناس؛ والثاني كي تظل لهذه المدن ركيزة اجتماعية تدعو إلى التوازن والاستقرار.

ثالثاً - إن المدن التي بناها السلوقيون كانت كثيرة، وقد أقيمت في رقعة واسعة، كما أنها أنشئت في فترات متعاقبة. لذلك قد لا نجد أن هذه الأعمال كانت تنتظمها سياسة استعمارية واحدة. ولكن، بالإضافة إلى المبدئين العامين المذكورين فوق (أولاً وثانياً) هناك نقطة ثالثة حرة بالذكر، وهي أن سكان هذه

المستوطنات كانوا يعطون أرضاً للعناية بها والعيش منها، هذا مع اختلاف في سعة الأرضين وشروط استغلالها. إلا أنه من الثابت تاريخياً أن هذه الأرض التي كانت تمنح للمقيمين (المستوطنين) كانت تصبح ملكاً شخصياً للمعطة له (ولورثته من بعده) متى أصبحت المستوطنة «مدينة» (polis)، أو حتى قبل ذلك في بعض الأحيان.

رابعاً - إن الغالب على هذه المستوطنات/التي أصبحت مدناً/ أن يتمتع سكانها بالحرية العامة، التي كان الأغارقة (لا أهل مقدونيا) يعرفونها في مدنها الأصلية، وأن تكون لها مؤسساتها التي تمارس هذه الحرية على أساسها. على أنه يجب ذكر أن هذه الأمور كان يمنحها الملك السلوقي، عندما ينشئ «مدينة» أو يرفع مستعمرة إلى درجة «مدينة». وأهم ما كان يميز المدينة، من حيث الحرية، عملياً، هو أن تُمنح حق «سك النقود».

خامساً - إن ما كانت قد توصلت إليه المدينة اليونانية، من اتخاذ التعامد قاعدة لتخطيطها، اتُّبع في أكثر الحالات، في المدن (وحتى المستعمرات ولو إلى درجة أقل) التي أنشئت في الدولة السلوقية. وكان المخطط، أو المهندس، يترك فسحة لإقامة الأبنية اللازمة للمؤسسات المدنية والمدنية والتجارية والرياضية (بعض الأبنية الرياضية كانت تقام خارج أسوار المدينة).

ونحن، إذا بدأنا من مدينة أفسوس (على شاطئ آسيا الصغرى الغربي) واتجهنا شرقاً، مع الطريق التجاري الرئيسي، والطرق المتفرعة عنه، وجدنا ما لا يقل عن خمس وعشرين من هذه المستعمرات في جنوب آسيا الصغرى. ومن طرسوس، كان خط المستعمرات (المستوطنات) والمدن يتجه جنوباً إلى شمال سورية وفينيقيا وفلسطين. ولندكر أن شمال سورية كان قلب المملكة السلوقية، ومن ثم فقد بلغ إنشاء المستوطنات فيه غاية النشاط.

ولسنا نعنَى في هذا الحديث بالأعمال الفردية للأباطرة السلوقيين، من حيث إقامة المستوطنات، إذ إن الذي يعيننا اصلاً، هو «المدينة» (أو المستوطنة) من حيث الدور الحضاري الذي قامت به. على أننا يجب أن نشير إلى أن القسم الأكبر من المنشآت السلوقية الجديدة (أو القريبة من الجديدة) تمت في القرن الثالث. أما ما تم في القرن الثاني فقد كان، في غالب الحالات، نوعاً من التنمية المدنية (Urbanization) عن طريق رفع درجة قرية كبيرة أو مستوطنة عسكرية إلى مستوى مدينة.

ونحن إذا أخذنا أهم ما أنشأه السلوقيون في بلاد الشام وأرض الرافدين، وجدنا المستوطنات (مدناً كانت هذه أو مستوطنات عسكرية) التالية:

المدن الأربع - ويبدو أن هذه كانت لها مرتبة مدينة (Polis) منذ البدء - وهي **أنطاكية**، و**سلوقية البحرية** (السويدية)، و**اللاذقية**، و**أفامية**. وقد كانت أنطاكية المركز الأهم للطرق التجارية من البحر (وكان العاصي صالحاً للملاحة، فكان يربطها بسلوقية البحرية الواقعة على مصبها) إلى الداخل. أما سلوقية، فكانت الميناء الرئيسي الذي يوصل العاصمة (أنطاكية) بالموانئ المتوسطية في آسيا الصغرى والجزر اليونانية. كما كانت اللاذقية صلة الوصل بين أواسط الأجزاء الشمالية من سورية وقبرص ومصر وما إلى ذلك من موانئ البحر المتوسط. أما أفامية (على العاصي) فقد كانت تقع في منطقة زراعية خصبة، وكانت تربي فيها الخيول والفيلة اللازمة للجيش السلوقية.

وقد أنشئت مدينتان على نهر الفرات، عند منعطفه الشمالي على ضفتيه، سميتا **سلوقية** و**أفامية**، وكان ثمة جسر يربط بين المدينتين لتعبره القوافل المتجهة شرقاً وغرباً. وقد غلب على المدينتين اسم زوجهما. كما أنشأ سلوقس الأول نيكاتور (٣١٢ - ٢٨٠ ق. م) مدينة على دجلة سماها **سلوقية دجلة**، هي التي حلت محل بابل القديمة وورثتها **كتيسيفون** أو **طسيفون** (المدائن) عاصمة الساسانيين، ثم جاءت بغداد بعد هذه. وهذه جميعها متقاربة جداً، في أماكن وجودها.

أما في الأجزاء الداخلية من بلاد الشام، فقد أقيمت من جديد (أو جُددت) مجموعة من المستوطنات، وصل بعضها درجة «مدينة» فيما بعد، وهي **بوروي** (حلب) و**هيرابوليس** (منبج) و**أبيفانيا** (حاة) و**لاريسا** (شيزر) و**ارتوزا** (الرسن) و**هليوبوليس** (بعلبك) و**خلقيس** (عنجر).

وفي بلاد الرافدين، أنشأ السلوقيون (أو جدّوا) **إنطاكية - إدسا** (أورفه أو الرها). و**إنطاكية - نزييس** (نصيبين) و**دورا - أوروبس** (الصالحية) و**تشاركس - أنطاكية** (على مصب دجلة) و**سلوقية في عيلام** (سوسة أو شوشن).

وفي فلسطين، أنشأ الإسكندر مستوطنة عسكرية في السامرة. وفي أيام البطالمة (القرن الثالث ق. م) تم إنشاء أو تجديد **بطلماوس** (عكا)، و**سكيتوبوليس** (بيسان) و**فيلوطيريا** (؟). وقد أقام الإسكندر مستوطنة عسكرية في **غيرازا** (جرش) في الأردن، اهتم بها السلوقيون فيما بعد، وأضافوا إليها **هبوس** (قلعة الحصن) و**جدارا** (أم قيس). وعنوا كذلك ب**فيلادلفيا** (عمان) التي كان البطالمة قد بنوها.

على أن العناية التي وجهها السلوقيون للمدن الساحلية، الواقعة بين اللاذقية وغزة، حرية بالتذكّر. ولعلّ هؤلاء الحكام أدرّكوا أن المدن الساحلية كانت «وحدات سياسية» (مدن - دول) قبل وصول الإسكندر (ومنذ أيام الفينيقيين)، فاهتموا بها وطوّروها، على تفاوت في منحها الحقوق المدنية. فنحن، نجد أن طرابلس وجبيل وبيروت وصيدا وصور وقيسارية ويوبا (يافا) وعسقلان وغزة، كانت موضع اهتمامهم.

وفي أواخر العصر السلوقي وبدء العصر الروماني (الذي بدأ سنة ٦٤ ق . م . حين استولى بومبي على بلاد الشام) كان ثمة مجموعة من المدن، التي كونت فيما بينها حلفاً باسم «المدن العشرة» . وكانت المدن المؤسسة لهذا الحلف هي: سكيثوبوليس (بيسان)، وبلا (فحل)، وجدارا (أم قيس)، وهبوس (قلعة الحصن)، وديوم (إيدون؟) وكناثا (القنوت)، وفيلادلفيا (عمان)، وغرازا (جرش). ويبدو أن دمشق وبلا (إربد؟) وكابيتولياس (أم الجبال) كانت قد انضمت إلى حلف المدن العشر في بعض الأحيان .

والحري بالاهتمام هو أنه لما أصبحت بلاد الشام ومصر وبعض أرض الرافدين جزءاً من الإمبراطورية الرومانية، سار أباطرة الرومان وولاتهم على خطى خلفاء الإسكندر في العناية بالمدن التي وجدوها، كما أنهم أقاموا هم أنفسهم مدناً أخرى .

ولعل أهم المدن التي يرجع فضل بنائها للرومان، هي سبسطية وقيسارية وطيرياس (طبرية) وصفوية (على مقربة من الناصرة) ونيابولوس (نابلس) وإيليا كابيتولينا (القدس/ الرومانية) وفيليبوليس (شبهة) ومكسيبمانوبوليس (شكة) ونيابوليس (في حوران - الشيخ مسكين) وفينا (مسمية) ونيفا (نوى) .
أما في مصر فقد ظلت الإسكندرية موضع العناية، والوحيدة كمدينة .

وبسبب الحروب الكثيرة والاضطرابات والثورات التي مرت بالبلاد الشرقية في أيام الرومان - وخصوصاً بدءاً بالقرن الثالث الميلادي، ثم انقسام الإمبراطورية الرومانية إلى شرقية (بيزنطية)، وغربية، وقيام الدولة الساسانية التي ناصبت البيزنطيين العداء والحرب - أقفرت مدن كثيرة في بلاد الشام بحيث أنها أصبحت خرائب .
إما ظاهراً بعضها للعيان، أو غنفي أكثرها تحت الرمال والأتربة . أما المدن التي اجتازت هذه المصائب، فقد ظلت كذلك في عهد الإمبراطورية البيزنطية .

٤ .

لعل أكبر أثر لفتوح الإسكندر، هو أن المدينة - الدولة، التي تحتوي نفسها وتكتفي اكتفاء ذاتياً، أصبحت، في الواقع، أمراً منسياً . صحيح، أن مدناً بُنيت وكان لها مؤسساتها، لكن الأهم من ذلك، هو أن الآفاق الجديدة كانت أوسع مما عرفته بلاد الإغريق، حتى في عصر توسعها في البحرين المتوسط والأسود، ومما عرفه المشرق من قبل . كما أن الإمكانيات الاقتصادية والتجارية منها بأسواقها المترامية بشكل خاص، فتحت أمام السكان، على اختلاف أنواعهم، مجالات واسعة لم تكن البشرية قد عرفتها من قبل . وقد برزت أمام سكان المشرق قضايا جديدة اجتماعية ودينية وفكرية، نشأت عن التحاك بين مجموعتين من التجارب الشرقية القديمة والإغريقية الوافدة، لم يكن للناس قبلاً بها . (وسنعرض لبعض هذه النواحي فيما يلي) .

وما ذكر ينطبق على المدينة الهلنستية . وقد كان ثمة اتجاهان واضحان : الأول ، الذي تمثله المدينة الهلنستية في آسيا الصغرى ، التي كانت جذورها إغريقية الأصل ، فنمت المدينة على تلك الجذور . وهذا الاتجاه تمثله مدينة برغامس عاصمة الأتاليين ، والاتجاه الثاني تمثله المدن (الإغريقية) الحديثة ، التي قامت في بلاد الشام ومصر ، والتي كان الغرض الأصلي من إنشائها إقامة موطن قدم للمستعمرين الجدد . وقد اختلط الاتجاهان في كثير من الحالات ، وكانت ثمة صفات مشتركة بين صنفى هذه المدن ، لكن ظل لكل من الصنفين ميزته الخاصة ، إلى أن جاءت روما ، فأضافت إلى مدن المشرق مما كان عندها .

ومدينة برغامس ، كانت منذ القرن الثالث ق . م . عاصمة دولة الأتاليين ؛ وفي أيام ملكها يومينس الثاني (١٩٧ - ١٥٩ ق . م) مركزاً من المراكز الكبرى الفنية في العالم الهلنستي . وقد كانت تقتعد ثلة لها موقع في غاية الجبال ، تشرف على نهر كايكوس ، وكان ثمة شارع واحد أساسي يخترقها ، من البوابة الجنوبية إلى القلعة . وقد كانت أبنيته الرئيسة - الأغورا ، والجمنازيا ، وهيكل ديمتر الفخم - تحتل المدرج الطبيعي الذي نحتته الطبيعة ، كما كانت تقوم أبنية الأثرياء والنبلاء في حي آخر من المدينة . ومع أن المدينة خُطط لها أصلاً ، على قاعدة هودامس ، فقد تطورت ، خلال قرن من الزمان أو يزيد ، بحيث أضيف إليها هيكل آخر ومسرح . ومع أن المخطط كان واضحاً ، فإن أثر رودس وهليكارناسوس لا يخفى على الباحث في تطورها . وقد انتهى دور برغامس في عهد الأمبراطورية الرومانية ، لكن آثارها لا تزال تحلب الأبواب (واجهة الهيكل والمذبح نقلت إلى برلين في مطلع القرن الحالي ولا تزال قائمة في متحف برلين الشرقية إلى الآن) .

والمدينة الهلنستية المشرقية ، كان مخططها الأساسي - كما مر بنا - يعتمد المستطيلات المتناسقة ، التي تحدها الشوارع المتعامدة . ولعل دورا - أوبس (الصاحية) على الفرات من خير النماذج على ذلك . فقد أنشئت حوالى سنة (٣٠٠ ق . م) . وخربت سنة (٢٥٦ ق . م) واختفت آثارها تحت الرمال إلى أن أزيحت هذه عنها في العقدين الثالث والرابع من القرن الحالي (كانت ثمة محاولات أولى لنش مجباتها قبل الحرب العالمية الأولى ، لكن العمل الجدي المنظم تم بين ١٩٢٠ و ١٩٣٧) . والمخطط الأصلي ، كان شبكة تعين شكلها تسعة شوارع طولياً واثنا عشر شارعاً عرضياً ، تحتضن فيما بينها بين ستين وسبعين قطعة أرض مستطيلة معدة للبناء ، مساحة كل منها : ثلاثون متراً في ستين متراً . وقد جعل عرض كل شارع خمسة أمتار ونصف المتر ، باستثناء ثلاثة شوارع ، كان أحدها يبلغ عرضه أحد عشر متراً (شارع طولي) . وكان الاثنان الآخران ، عرض كل منهما يزيد قليلاً عن الثمانية أمتار (شارعان عرضيان) . وقد احتفظ في وسطها بما يعادل مساحة ثمان قطع بنائية للأغورا والأبنية المتصلة بها . أما القلعة ، فقد كانت على نشز مستقل يشرف على الفرات ، وكانت أسوار المدينة تتبع خطوط الارتفاع للأرض القائمة عليها .

ولما أنشئت دورا - أوروبس، بنيت القلعة والأسوار حالاً. وهذه قام على صيانتها أولئك الذين حكموها على التوالي - السلوقيون ثم الفرثيون ثم الرومان (في السنوات الخمس والسبعين الأخيرة من عمرها). وقد كان يقيم فيها، أثناء الحكم الروماني قائد الحامية الرومانية لحراسة الحد الفراقي وجنوده. أمّا من الناحية المدنية، فالأمر يختلف. فإذا كان سلوقس الأول نيكاتور (٣١٢ - ٢٨٠ ق. م) قد أرادها مركزاً لنشر المدينة الهلينية في المشرق، فإن حلمه تبخّر بسرعة. فقلعة من المباني ذات الأسلوب اليوناني أتيحت لها أن تتم. فوسط المدينة شُغِلَ نصفه فقط، والأغورا اليونانية القصور، أصبحت سوقاً شرقية عادية، ولكنها ضخمة. لأن دورا - أوروبس كانت على طريق تجاري هام. والهياكل التي بنيت كانت للآلهة الشرقية القديمة واليهودية والمسيحية. أما الرومان فقد أنشأوا مساكن للجنود وحمامات وسوقاً مكشوفة، لكنها كلها كانت تشير إلى أن الشرق انتصر في دورا - أوروبس.

هذان نموذجان - برغامس ودورا - أوروبس. كل يمثل اتجاهاً من الاتجاهين، والامتزاج في الثانية موجود، لكنه محدود.

لكن هذا لم يكن الطريق الذي سارت عليه كل مدينة هلنستية في المشرق. فالإسكندرية، وهي التي اختطها الإسكندر بنفسه، لم تلبث أن أصبحت إحدى عجائب العالم سعة واقتصاداً وعلماً. لكن المدينة اتخذها البطالمة عاصمة لهم، فاستمرت أيامهم، وأيام الرومان، وما تلا ذلك من الأيام. ولا نريد أن نصف هذه المدينة هنا، إن هذا يستغرق صفحات كثيرة.

والمدينة الهلنستية في بلاد الشام (والعراق مثلاً) ورثتها الأمبراطورية الرومانية. وقد جاء الرومان معهم بما كان لديهم من تجارب في المدن - بناء وفناً وتكنولوجيا - فأضافوا هذا إلى هذه الشبكة « الهبودامية » التي كانت أساس المخطط الهلنستي للمدينة. فكانت المدينة الجديدة (التي يمكن أن نطلق عليها اسم المدينة الهلنستية الرومانية)، نتيجة لتمثل الرومان لما كان في المشرق وإدخالهم ما عندهم في الإطار الأقدم عهداً. وهذه المرونة والتوفيق بين القائم والقادم، هو الذي أعطى المدينة الشامية، في الفترة الممتدة من حوالى (٣٠٠ ق. م) إلى (٣٠٠ م)، صفاتها البارزة. وهذه الصفات أخصها: الفخامة والجمال، مع العناية بالأمور العملية وحاجات الناس (حمامات وأسواق وجسور وأسوار). فالرومان كانوا، بالإضافة إلى أنهم سادة التشريع القديم، أرباب المسطرين والإزميل. ولكن الذي يجب أن نذكره دوماً، هو أن اليد الصناع التي كانت تقيم المدينة، و« تقصّب » أحجارها وتنحت تماثيلها وتنقش أفاريزها، كانت اليد الشامية التي مرت على هذه الأمور قروناً طويلة، فحذقتها. وهذا التعامل بين المخطط والمنفذ، وهذا التفاعل بين الفريقين الوطني والأجنبي، هو الذي أنتج الآثار الجميلة الكثيرة.

ونحن، عندما نذكر ما جاء به الرومان من أمور تتعلق بتنظيم المدن، يجب أن نذكر أن بعضاً منها عُرف من قبل، لكن الدهر عفا عليه، فجاء الرومان به من جديد، وكان لهم فضل في ذلك .

وأهم ما حمله الرومان إلى المدينة العراقية - الشامية - المصرية (الهلنستية)، هو التكنولوجيا المتعلقة: بقنوات جر الماء والمجارير لتصريف ماء المدينة، وبناء الجسور، والطرق، والحمامات، والمسارح، وأساليب جديدة في إنشاء المباني الكبيرة (مثلاً الباسيليكا بدل الرواق). فهذه الأمور لما ضمت إلى الشبكة الهبودامية، والميل الأصيل عند الشرقي لأن تكون مدينته - بقدر ما تسمح الطبيعة - جميلة المظهر والمخبر، انتجت مدناً تطلب آثارها الألباب (وإن كانت بعض أجزائها، المعدة للسكن العادي، تبدو خارجة عن كل تنظيم وتخطيط، إما بسبب الأخطار الخارجية، أو بسبب ازدحام السكان، أو ما إلى ذلك).

ونحن إذا اخترنا بعض تكنولوجيا الرومان، وبخشنا عنها في المدن الشرقية، وبخاصة التي لا تزال قائمة إلى الآن، ولو بشكل آثار بيّنة أو كُشف عنها، وجدنا أن الواجهات الفنية والأعمدة المزخرفة - مع الاحتفاظ بالمخطط الأصلي - من أبرز ما تمّ في عهد الأمبراطورية الرومانية (ونحن نقف في هذا الحديث في القرن الرابع الميلادي). فبعلبك وجرش مثلان واضحا على ذلك، (يمكن أن تضاف هليكارناسوس في آسيا الصغرى أيضاً). فالهياكل والأعمدة والمسارح والفورم (وريشة الأغورا)، كلها تبدو فيها آثار الجمال والفن. يُضاف إلى ذلك أن هذه المدن - في أكثرها، إن لم يكن فيها كلها - ضخمة الآثار والمباني. ويكفي أن يسير الواحد منا بين آثار تدمر، والشمس تشرق في الصباح المبكر، ليرى هذا كله مجتمعاً. ومن الأمور التي عني الرومان بإقامتها في المدن، النَمَفيّات، وهي النوافير المائية. عند تقاطع الشوارع الرئيسية أو أمام مداخل الهياكل. وهذه النَمَفيّات هي مزيج من التقرب إلى الآلهة (التي كانت تقام تماثيلها حولها) وإلى الفن والجمال، وحتى الشعر. ومن أجل النَمَفيّات في بلاد الشام (الهلنستية) تلك التي كانت في دفنة (مفاني إنطاكية)، وفي جرش (أما في آسيا الصغرى، فافسوس ومليتوس اشتهرتا بنمفياتها).

وحل الرومان - أكثر مما عني الأغارقة بذلك - المسارح. وقد كان في كل مدينة مسرح أو أكثر. فجرش كان فيها مسرحان.

وليس من شك، في أن الشوارع التي تزينها الأعمدة وتغطيها السقوف (لحماية الناس من الحر والمطر على تعاقب الفصول)، كانت من أهم ما أدخله الرومان في المدن الشرقية. وفي بلاد الشام كانت إنطاكية (وقد بني فيها أول شارع معمد في المشرق سنة ٤ ق. م)، وصور وجرش، وتدمر، وحلب، ودمشق، وبُصرى، تزينها هذه الشوارع؛ وقد كان في معظم المدن أكثر من شارع واحد، وكثيراً ما كانت هذه تتعامد. وعلى جانبي الشارع كانت تقوم الحوانيت التي يبتاع منها الناس حاجاتهم.

وقد بنى الرومان في ديار الشام الطرق المبلطة للعربات والخيول، ورفعوا القنوات لنقل الماء من مسافات بعيدة ليفيد منه السكان. كما أن الحمامات (المنزخقة من الخارج بالنحت والنقش الجميلين) كانت جزءاً أساسياً من المدينة في تلك الأزمنة.

وكانت تقوم خارج المدن مضامر السباق (الهودروم) للخيول والعربات، وهذه حلت محل الجمنازيا (الرياضية) الهلنستية في أغلب الحالات.

وكثير من المدن الهلنستية الرومانية، يمكن زيارة آثارها الآن. وإن كان الكثير منها قد تهدم وانطمس، لأسباب مختلفة. أما المدينة، التي كان لها من موقعها ومن ثروتها ما يحملها على البقاء، فقد بقيت؛ وهذه حلب ودمشق وحص و حماة والقدس وإنطاكية واللاذقية وطرابلس وجبيل وبيروت وصيدا وصور وعكا ويافا وغزة - وغيرها كثير - لا تزال حيث كانت، وإن كان بعضها، لأسباب مختلفة، تقلص حجمه (وبعضها اتسع وتضخم).

٥ .

أحسب أنه قد تم لنا حتى الآن، أن نضع «المدينة الكلاسيكية» على الخارطة، زماناً ومكاناً؛ وقد تم لنا أيضاً التعرف إليها **مخططاً وجسماً**. ولعلنا تمكنا، بشيء من التخيل، أن نحس بوجودها زخرفة وعمراً (قديمًا)، أو آثاراً وخرائب (اليوم). والآن يواجهنا السؤال المهم - ما هو الدور الذي قامت به المدينة الكلاسيكية في التاريخ؟.

وأود، بادئ بدء، أن أسجل أموراً ثلاثة. ولعلي عرضت، من قبل، لهذه الأمور أو أحدها؛ لكنني أرى أن وضعها هنا يعيننا على استشفاف ما نريد أن ننقل إليه الآن.

أولاً: المدينة الكلاسيكية في الغرب - الإغريقي والأتروكي والروماني منها - كانت «وحدة» الحياة السياسية، و «وحدة» الحياة الاقتصادية و «وحدة» الحياة الفكرية (بكل ما للكلمة من معنى). ففي إطار «المدينة»، ولدت المدينة وتطوّرت وانتقلت إلى أماكن جديدة، واتصلت بغيرها، واحتكّت مدنية المدينة الواحدة بمدنية الأخرى. ومن ثم فقد «قولبت» المدينة التفكير السياسي والاجتماعي والاقتصادي، فضلاً عن «قولبتها» للتصرف في هذه الأمور. ولذلك، فإننا لن نقف عند تفصيل هذه الأمور، فنكتفي بذلك.

ثانياً: كان للشرق القديم، وقبل الأغارقة والأتروكيين والرومان بقرون عديدة، تجارب متعددة الأصناف، متنوعة المناحي في المدن وحضاراتها ومدنيتها. لكن المدينة - الدولة في المشرق القديم (بلاد الشام وأرض الرافدين)، كانت لها خصائصها وكياناتها واتجاهاتها. وانتهى الأمر بها أخيراً إلى أن تلتهما مملكة، أو

تبتلعها أمبراطورية، فتصبح جزءاً من هذا الكل الكبير . وقد تم لنا ذلك في وقت مبكر من تاريخها، بحيث أنه لما جاء الإسكندر واعتزم - هو على الأقل، وخلفاؤه إلى درجة أقل بكثير - على إنشاء « المدينة » الإغريقية، لتكون وعاء للمدينة « الهلينية » (كانت مدن المشرق قد عرفت الممالك والأمبراطوريات لمدة لا تقل عن عشرين قرناً) .

ثالثاً : لما جاءت المدينة الإغريقية إلى ديار المشرق، وأقامها البطالمة والسلوقيون إزاء المدينة القديمة - إما مجاورة وإما مداورة - كان ثمة فرق بين ما كان يقوله الواردون (المستعمرون) وما يدركه أهل البلاد (الذين أصبحت بلادهم مستعمرات) . فالأولون، يريدون حرية يمارسونها على نحو المدن الإغريقية، والآخرين، يريدون كرامة في بلادهم . ولكن الخصومة - عندما كانت تَدْرُ بقرنها - لم تكن من سكان المدينة الأصليين ضد مدينة إغريقية (أو مقدونية)، أو مستعمرة عسكرية (مقدونية أو إغريقية)، وإنما كانت موجّهة ضد صاحب السلطان . فالثورات التي عرفها العصر الهلنستي - فضلاً عن الحروب التي قامت بين المتنافسين على السلطة والثروة والبلاد - كانت ثورات ضد الحاكم، بقطع النظر عن أية نظرية أو تفسير لوجوده .

رابعاً : قيام المدن الهلنستية كان سريعاً . فقد تم بناء أكثرها في مصر وبلاد الشام وأرض الرافدين (ما تبقى منها للسلوقيين)، في الفترة الممتدة من حول (٣٠٠) إلى حول (١٧٠ ق . م) (وما بني من جديد بعد ذلك كان قليلاً، أما ما رفع إلى درجة « المدينة » من القرية، فأمره يختلف عن ذلك) . ويبدو أن هذا النشاط السريع القوي الزخم كان أثقل كاهل المدن - لا من الداخل فحسب، ولكن من الخارج أيضاً - فأخذت تتعثر، وكثير منها تهدمت أسواره، وجفت قنواته، واقررت معالمه في القرن الأول ق . م .

خامساً : لسنا ندري ما الذي كان يمكن أن تؤول إليه البقية الباقية (وهي كثيرة) من المدن، لولا أن قدم الرومان إلى البلاد في الوقت المناسب . ومع أنهم احتاجوا بعض الوقت كي يتعرفوا على الاتجاهات المناسبة، فإنهم لم يضيعوا الوقت بعد ذلك . فأنقذوا حياة كثير من المدن، التي كانت في حالة النزاع، وأحيوا البعض الذي كان قد تخلت عنه الحياة، وبنوا مدناً جديدة . وقد أشرنا من قبل إلى أن « الهلينة » و« الرومنة » عملان متصلان، بدأ الثاني عمله حيث كان الأول قد ثبت أقدامه . صحيح، أن المدينة الرومانية كانت أفخم وأجل وأكثر زخرفاً من سابقتها الهلنستية، لكن هذه هي التي وضعت المخطط، وأقامت الأبنية الأساسية للمؤسسات « المدينة »، وأعطت المدن شخصيتها . (وعلى كل فسنشير فيما تبقى من هذا الحديث إلى الرباط الداخلي بين المدينتين) .

والآن نعود إلى السؤال - ما هو الدور الذي قامت به هذه المدينة (الإغريقية - المقدونية/الرومانية) في التاريخ الحضاري للمنطقة ؟ .

خلال القرون السبعة (تقريباً) التي مرّت بين قيام الإسكندر بحملاته على المنطقة ووفاة قسطنطين الكبير (٣٣٧ م)، عرف العالم، الممتد من أواسط آسيا إلى غرب البحر المتوسط، اتصالاً بين أجزائه لم يعرفه من قبل، (عرف اتصالاً أوسع وأقوى فيما بعد على أيدي العرب). ومع ما كان يقوم بين أجزائه من حروب وخصومات وثورات، فقد كان الغالب على أجزائه أن تتصل تجارياً. ومن هنا، فإن التجارة المسكونية عنصر هام في مجال التطور الاقتصادي؛ فبضائع الشرق الأقصى، المنقولة برّاً وبحراً، كانت تتجمع - بشكل أو بآخر - في أسواق الإسكندرية وإنطاكية ودمشق وتدمر وصور وصيدا، كي تُنقل منها إلى الغرب، كما كانت متاجر الغرب، (أو ذهبه وفضته)، تصل إلى هذه الأماكن، لتحمل منها إلى الشرق كثرمن للبضائع القادمة. على أن هذه المدن، وعشرات غيرها، لم تكن مجرد أسواق لتبادل المتاجر. لقد كانت لها صناعاتها: الأقمشة في بلاد الشام، والزجاج في مصر وبلاد الشام، (وخاصة بعد أن اكتشفت عملية نفخ الزجاج وهو سائل، لصنع الأدوات منه. والظاهر أن هذا تمّ في صور وصيدا في القرن الأول للميلاد)، والأصبغة الأرجوانية من مدن لبنان، والفواكه المجففة والمكسرات والخمور والزيتون الشامية، والأسماك المملحة والمقددة من البحر المتوسط وغير ذلك. وهذه كلها، كانت تحمل إلى موائد الأغنياء لتكون أطعمة ممتازة في حفلاتهم، أو ثياباً جميلة يرتدونها، أو أوانٍ مزخرفة يزيتون بها بيوتهم.

صحيح، أن الملوك السلوقيين كانوا يقيمون المدن - والمستعمرات خصوصاً - دون الاهتمام المباشر بالناحية؛ لكن الميناء والمدينة، السوق والمركز على طريق القوافل كان لا بد لها من أن تتسع وتقوى، ولو على حساب مدن أخرى، إلاّ أن تكون هذه المدن لها حساب خاص في نفس البناء والمنشئين. فمدينة أفامية على العاصي، اختارها السلوقيون لتكون مركزاً لتربية الخيول والثيران والبقيلة. فكان لهم ذلك، ولكن ثراء المنطقة جعلها المركز التجاري الرئيسي للأجزاء الداخلية في شمال سورية.

ونكتفي بهذا القدر عن التجارة والصناعة، لأننا إنما قصدنا التذكير.

ولنعد إلى ما ذكرناه قبلاً: إن التجار ينقلون أموراً كثيرة مع متاجرهم - القصص والعادات والآراء - وخاصة، أن تجار العالم القديم كانوا يتنقلون على شكلٍ يمكنهم من ذلك، إن لم يكن يرغمهم عليه.

أسكن السلوقيون، في المدن - المستعمرات التي أنشأوها، الأغارقة والمقدونيين، ليكونوا جنودهم - مشاة وفرساناً - وحماة لهم في حين الحاجة. وهؤلاء، كانوا المواطنين أصلاً؛ ولكن هذه المدن كان فيها من أبناء البلاد أيضاً. وقد يكون هؤلاء كثرًا في المدينة، إلاّ أنهم كانوا يعتبرون بوليتوفا (أي جماعات عنصرية وطنية) لا يتمتعون بالمواطنة، إلاّ فئة صغيرة كانت تُمنح هذا الحق، بسبب ثرائها أو مشاركتها في الأمور العامة للمدينة. أمّا بقية السكان الشاميون مثلاً، فقد كانوا يقومون بفلاحة الأرض والأعمال الصناعية والتجارة المحلية في

حوانيت صغيرة. ومعنى هذا، أن فئة بوجوازية ظهرت لأول مرة في تاريخ بلاد الشام، قوامها: المستعمرون، ومن اعتبروا مواطنين من أهل البلاد. كان يقابلها الفئات العاملة في مختلف الحقول والمجالات. والفئة البوجوازية، هي التي كان يُختار منها الموظفون، وأعضاء مجالس المدن، والقضاة، وما إلى ذلك. وكانت في قمة هذه الفئة البوجوازية جماعات صغيرة، يمكن أن يُطلق عليها اسم الأرستقراطيين. ومن هؤلاء، كان يُختار القواد (السترايجوس)، والحكام الكبار (الولاة وأعوانهم). والطبقة البوجوازية هذه، كانت تجمع ثروتها من التجارة الدولية، وبعض الصناعات الكبرى التي كانت تستثمر ثروتها فيها، أو تقوم نيابة عن الدولة في استثمارها، إذ كانت الصناعة حكرًا على الدولة. ولما جاء الرومان لم يتغير الحال كثيرًا. ذلك بأن عدد الرومان (بمن فيهم الإيطاليون)، الذين انتقلوا إلى المدن الشامية، كان صغيراً نسبياً، وكانوا (إلا في أحوال خاصة) جنوداً. وقد استمر مجيء الأغارقة إلى البلاد في العصر الروماني.

أما في مصر، فإن الأغارقة والمقدونيين انتشروا في البلاد في أيام البطالمة، لأن هؤلاء لم ينشئوا مدناً على غرار السلوقيين. ومع ذلك فقد كان هؤلاء الأغارقة والمقدونيين، حيث استقروا، الامتيازات نفسها التي كانت لأمتائهم في بلاد الشام وآسيا الصغرى وأرض الرافدين. وقد تزوج أغارقة مصر ومقدونيوها مع سكان البلاد. أما في بلاد الشام فقد احتفظ هؤلاء بالعنصر الأصلي، لأنهم كانوا يتزاوجون فيما بينهم، إلا فيما ندر.

وبالإضافة إلى هذا الفرق العنصري (وخاصة في بلاد الشام)، فقد كان ثمة فرق آخر. وهو أن الطائفتين على البلاد كانوا يتكلمون اليونانية، أما سكان البلاد، فقد احتفظوا بلغاتهم الأصلية. فكانت الآرامية تغلب على الشمال، والفينيقية تستعمل في الساحل اللبناني، والعربية في الشرق والجنوب الشرقي. ولم تنتشر اليونانية إلا بين فئات من أهل البلاد الأصليين، المقيمين في المدن، في أغلب الحالات.

والمدن الهلنستية مع سكانها، استطاعت - وخاصة بعد أن جاء الرومان البلاد - أن تضيف أموراً هامة في النواحي التكنولوجية، وقد أشرنا إلى بعضها من قبل. لكننا نريد أن نضيف هنا، أن الزراعة أفادت من هذا الاختلاط: أولاً، بسبب الاهتمام بإيصال المياه إلى مناطق كانت محرومة منها، وثانياً: لأن التجارب الزراعية في إيطاليا وقرطاجة وغيرها، حُملت إلى بلاد الشام في تلك الفترة. فكان ذلك تطوراً كبيراً في المنتجات والإنتاج، وفي نقل الكثير من النباتات من الشرق إلى الغرب، وبالعكس.

على أن الدور الأكبر للمدن في تلك القرون - وخاصة منذ القرن الأول قبل الميلاد - كان فيما أنتجته المدن الشامية من أدب وفن. وذلك لما أتيقن أبناء البلاد في المدن اللغة اليونانية، وأصبحوا قادرين على التعبير بها (ثم كتب بعضهم باللاتينية فيما بعد).

وقبل أن نتحدث عن النتاج الأدبي في بلاد الشام، نريد أن نُذكر بالدور الكبير الذي قامت به الإسكندرية، بوصفها مدينة العلم الأولى في ذلك الوقت. فالباطمة جعلوا من تلك المدينة مركزاً للعلم، في المتحف والمكتبة؛ وأغدقوا عليها بحيث كان العلماء يقصدون الإسكندرية للتعلم والتعليم، من جميع المناطق. ويكفي أن نتذكر أن إقليدس (القرن الثالث ق. م) لم يجد مكاناً أصح من الإسكندرية، ليقوم بأبحاثه، وليضع كتابه «المبادئ»؛ (وهو الكتاب الذي ظل، بأشكال مختلفة، العمدة في تعليم الهندسة ودرسها إلى القرن التاسع عشر). وفي الإسكندرية، قام اراتوشينس العالم الرياضي القوريني الأصل (٢٧٥ - ٢٠٠ ق. م) بقياس محيط الأرض، وكان الرقم الذي توصل إليه ينقص نحو (٣٠٠ كلم) عن القياس الحديث. وفي الاسكندرية، عاش بطليموس قلوديوس (القرن الثاني للميلاد)، الذي كان أكبر فلكي العصور القديمة، والذي ظلّت آراؤه - عبر الترجمة العربية لأعماله، ثم عبر نقلها إلى الغرب - المرجع الأصلي للجغرافية الفلكية، إلى أيام كوبرنيكوس (١٤٧٣ - ١٥٤٣). وجدول أسماء علماء الإسكندرية وأدبائها ومفكرها طويل، لذلك نكتفي بهذا هنا. (بعد انتشار المسيحية وقيام الخلاف بين الكنائس المسيحية، كان للاهوتي الاسكندرية دور كبير).

وبقدر ما كان العصر الهلنستي عصر نماذج وتقارب وتخاصم وتحاك في أمور الفكر وشؤون الدين وقضايا المجتمع ومشكلات السياسة، فقد تجلّى ذلك في المذاهب الفلسفية التي عرفها. وصفتها البارزة، أنها كانت مذاهب انتقائية. ولعلّ الانتقاء لم يتعمده مؤسسو هذه المدارس؛ ولكن، كان لا بد لهم من أن يجمعوا خيوط الفكر الشرقية والإغريقية، ويحكيوا منها الشبكة الفلسفية التي تعنى بمشكلات العصر. والعناية بمشكلات العصر، لا تعني دوماً إيجاد حل لها؛ بل قد يؤدي ذلك إلى تعقيد الأسلوب في بحثها، وتوسيع الأطر في تصيّدّها؛ فتبدو (الفلسفة) قضية جديدة وهي تحسب أنها حل! والفلسفتان اللتان عرفهما العصر الهلنستي، من حيث الانتشار - وفي المشرق بشكل خاص - هما الرواقية والأبيقورية؛ وهما المذهبان اللذان نجد أن بعض المفكرين كانوا يحرصون على فهمها ودرسها وتعليمها. أمّا الأفلاطونية الحديثة، بنت القرن الثالث للميلاد، فأمرها يتخطى العصر الهلنستي، وإن كان لا يخرج تماماً عن نطاق بحثنا. وهذه الأفلاطونية الحديثة الاشراقية، هي التي انتقلت إلى العرب فأثرت في تفكيرهم الفلسفي إلى درجة كبيرة. أما الرواقية والأبيقورية، فلم تشغل بال المفكر العربي كثيراً.

وببلاد الشام، أسهمت في الفترة المتأخرة من العصر الهلنستي، في الأدب اليوناني. ذلك أن العبقرية الشامية، لم تكد تقبض على ناصية اللغة اليونانية، حتى اندفعت تعبر عن تجاربها المختلفة قصة وشعراً وتاريخاً وفلسفة، وحتى بلاغة. وقد ظهر كتابٌ ومفكرون حتى في أماكن نائية نسبياً، مثل جدارا (في شمال الأردن)، وهيرابوليس

(منبج). وفي أغلب الحالات، كان هؤلاء ينتقلون إلى المدن التي لهم فيها قرّاء ومستمعون، مثل صور وإنطاكية، وحتى رودس وأثينا وروما.

ولا يمكننا أن نتحدّث عن جميع هؤلاء الذين ظهروا في تلك الفترة في بلاد الشام، ولكننا نودّ أن نقسّم الفترة إلى قسمين: الأول؛ هو فترة التعلّم للغة والأسلوب، والتحسّس لمعرفة النفس في البيئة الجديدة، والمحاولات الأولى للتعبير. وهذه تمتد إلى أواخر القرن الأول للميلاد، أو بعد ذلك بقليل. والدارسون لهذا الأدب - الأدب بمعناه الواسع على أنه جماع التجربة الفكرية - يرون فيه حياة ونضجاً، وكأنه كان يعوّض عن التمرّق السياسي والشرذمة الحكومية التي أخذت برقاب البلاد والناس (إلى حول ٥٠ ق. م)؛ أي حتى مجيء الرومان إلى البلاد (وقد حاول هؤلاء إدخال النظام، ولكن كان لا بد لهم من وقت حتى يتم لهم ذلك - في القرن الأول للميلاد). والموضوعات التي كتب فيها هؤلاء القوم، شملت: الفلسفة (الرواقية والأبيقورية)، والتاريخ، والقصة، والشعر، والنحو، والبلاغة، والأساطير. وكانت أكثر المدن الشامية مشاركة في ذلك، على أن تلك التي وصلتنا أسماء أبنائها، هي: صور وجدارا وإنطاكية وعسقلان وأفامية وهيرابوليس (منبج) ودمشق والقدس وبيروت.

وبين الأسماء اللامعة التي تعود إلى العصر الهلنستي انتيباطر الصوري وميلياغير الجداري (من شعراء القرن الثاني ق. م). وكان القرن الأول قبل الميلاد غنياً، إذ ظهر فيه فيلوديموس الجداري، الفيلسوف والشاعر؛ ونقولالوس الدمشقي، الأديب المؤرخ الذي وضع تاريخاً للعالم في (١٤٤) كتاباً؛ وأرخباس الأنطاكي، الشاعر البلاغي المتجول، والذي استقر في روما ودرّس فيها وصادق كبار أهلها؛ وبوزيدون الأفامي، الذي - بعد أن طوف في الآفاق الاغريقية الرومانية وجع معلومات جغرافية تاريخية ذات قيمة كبيرة - أقام في رودس حيث رأس المدرسة الرواقية. لكنه استقر في روما نهائياً، حيث توفي (٥١ ق. م)؛ مغلفاً عدداً كبيراً من المؤلفات عفا الدهر عليها، إلّا ما أنقذه الذين نقلوا عنه، أو ما تبقى من قطع صغيرة. ومن أهل القرن الأول ق. م، أنطيوخوس العسقلاني، الفيلسوف الذي وصل إلى أن أصبح رئيساً للأكاديمية في أثينا.

وقد برز، في القرن الأول للميلاد، مؤرخ هو يوسيفوس (المولود في القدس في ٣٧ م)، والذي وضع كتابين هامين في تاريخ المنطقة. وثمة جماعة، بعض أسماؤها معروف، والبعض الآخر مجهول. هذه الجماعة التي وضعت أسفار العهد الجديد (من الكتاب المقدس)، بأناجيله ورسائله وأعمال رسله. إن هذا أضخم مجهود أدبي فكري فلسفي، يعود الفضل في تأليفه إلى العبقرية الشامية، التي أرخت فيه للمسيحية، من حياة السيد المسيح إلى انتشار تعاليمه، ودونت الرسائل التي كتبها الرسل إلى الفئات المسيحية، موضحين للتعاليم، مشجعين على الصمود في الإيمان، مفسرين معنى رسالة المسيح الجديدة.

وحري بالذكر، أنه كان ثمة من كتب باللاتينية، في العقود المحيطة بحياة السيد المسيح، منهم:

أندرونيكوس الفيلسوف، وببليوس الإنطاكي الأديب، وبروبوس البيروتي الغراماطيقي (النحوي).

وقد أتت التجربة كلها فيما تلا ذلك من الزمن. فبين سنة (١٠٠ م) تقريباً وأيام جستينان (في القرن السادس)، أنتج الكتاب الشاميون أدباً في غاية الأهمية. ذلك أن قدمهم في اليونانية قد رسخت، وتجربتهم قد تعمقت؛ وجاءت الأفلاطونية الجديدة الإشرافية من مصر، فدرسها هؤلاء الكتاب. فالآفاق أصبحت أوسع، وعزف هؤلاء الكتاب، في شعرهم ونثرهم، عن تقليد القدامى، فبرزت شخصيتهم على شكل أوضح. وجاءت اللغة اللاتينية مع الإدارة والقانون، فكتب فيها علماءه. وانتشرت المسيحية، واختلف اللاهوتيون حول قضايا تتعلق بطبيعة المسيح ولاهوته وناسوته، وترجم المنطق الأرسطي إلى اللغة السريانية، ليكون أداة الجدل والمناقشة. واللغة السريانية هي اللغة الآرامية، بعد أن اتخذتها مدرسة أديسا (الرها - أورفا) وغيرها لغة الدين الجديد. وهكذا أصبح المفكرون يكتبون باللغات الثلاث: اليونانية لغة الفلسفة واللاهوت والأدب والتاريخ، واللاتينية لغة التشريع والإدارة، والسريانية لغة اللاهوت والطقوس الدينية المسيحية.

ولسنا نود الحديث هنا، عن الأدب المسيحي ومفكره، فتلك قصة طويلة ليس هنا محلها. لكننا نود أن نشير إلى بعض الأسماء اللامعة، التي برزت في القرون الثلاثة الأولى للميلاد، كنموذج لهذا التطور الفكري الذي عرفته بلاد الشام في تلك الأزمنة. ولعلّ أول ما يجب أن يُذكر، أن انطاكية وصور وبيروت وغزة وطرسوس كانت فيها أمهات المدارس الفكرية، التي بلغت درجة عالية من التميز في مختلف فروع المعرفة. وقد كان بين الكتاب البلقاء مكسيموس الصوري وأبسينس الجداري وكاسيوس الحمصي وليبانيوس الانطاكي، كما كان فرفوربوس وإيزيدور ودامسكيوس مفسري الفلسفة الأفلاطونية الحديثة. ويعتبر هيليودورس الحمصي رائد المدرسة القصصية، كما كان هيروديان الانطاكي ولوكيان السميساطي من كبار المؤرخين.

وكانت مدرسة بيروت الفقهية تقوم في القرن الثاني للميلاد على أكتاف بابنيان البيروتي وأولبيانوس الصوري. (وقد استمرت هذه المدرسة إلى أواسط القرن السادس، واستعان جستينان بعلمائها في وضع مدونته القانونية).

ويمكن القول، إن الثقافة انتشرت إلى درجة كبيرة في بلاد الشام. لكن السؤال الذي يطرح نفسه علينا الآن هو: ماذا كان حظ الريف من هذه الثقافة؟

إن الريف الشامي ظل يتكلم اللغة الآرامية، ولم تصل اللغة اليونانية إلى أبنائه إلّا لمأماً. (أما اللغة اللاتينية فقد كان انتشارها أضيق حتى من اللغة اليونانية). ومن ثم فلم ينل إلّا القليل القليل من هذه الثقافة. فحضارة العصر الهلنستي - الروماني، كانت في نواحيها المادية - اقتصاداً وعمراً وبناء - واسعة الانتشار في المدن والريف. أما

الفكر وما إليه ، فقد اقتصر على المدينة .

ولنقل ، في خاتمة هذا الحديث ، إن هذا الفكر الذي عرفته المدينة بأشكاله المختلفة ، هو الذي ظل يعمل في العصر البيزنطي ، مع توسُّع وتفرُّع ، وهو الذي كان ، في نهاية المطاف ، صلة الوصل الأولى بين ما كان في القديم وما أخذه العرب ، حينما قامت دولتهم في هذه الأصقاع .

مراجع

كتب مختارة

حول المدينة الكلاسيكية في الغرب الشرق

- زيادة ، نقولا : تاريخ البشرية (ترجمة لكتاب تويني المذكور أعلاه) ، الأهلية للنشر والتوزيع - بيروت (الجزء الأول ١٩٨١ ، والجزء الثاني ١٩٨٢) .

- زيادة ، نقولا : «الحكم السلوقي في بلاد الشام : أسسه وأساليبه» - مجلة الفكر العربي ، العدد ٢٢ .

(أيلول - سبتمبر / تشرين الأول - أكتوبر ١٩٨١) (ص ١٨١ - ٢٠٣) .

- المسلمي ، عبد الله حسن : كاليباخوس القوريبي - شاعر الإسكندرية . الجامعة الليبية ، كلية الآداب - بنغازي ، ١٩٧٣ .

- Bell, H.I. Egypt from Alexander to the Arab Conquest (Oxford, 1948).
- Bouchier, E.S. Syria as a Roman Province (Oxford, 1916).
- Charlesworth, M.P. Trade-routes and Commerce of the Roman Empire (Heidelsheim, 1961, reprint of 1924).
- Cohen, G.M. The Seleucid Colonies (Wiesbaden, 1978)
- Department of Antiquities, Jordan Jerash (Amman, 1948).
- Downey, Glanville, A History of Antioch in Syria from Seleucus to the Arab Conquest (Princeton, 1961).
- Ehrenberg, Victor Alexander und Aegypten (Leipzig, 1926)
- Everymon's Atlas of Ancient and Classical Geography (rev.ed. London 1952).
- Finlay, M.I. The Ancient Greeks (London, 1966).
- Jones, A.H.M. Cities of the Eastern Roman Provinces (2nd ed. Oxford, 1971)
- Jones, A.H.M. The Greek City from Alexander to Justinian (Oxford, 1940).
- Jones, A.H.M. Decline of the Ancient World, (London, 1966).
- Jones, A.H.M. The Later Roman Empire, 4 vols. (Oxford, 1964).
- Harding, Lancaster, The Antiquities of Jordan (London, 1960).
- Hopkins, Clark. The Discovery of Dura-Europos (New Haven and London, 1979).

-
- Latourette, K.S. A History of Christianity (New York and London, 1953).
 - Martin, R. L'urbanisme dans la Grèce antique (Paris, 1956).
 - Parker, H.M.D. A History of the Roman World from A.D. 138 to 337 (London, 1935).
 - Peters, F.E. The Harvest of Hellenism (New York, 1970) Rostovtzeff, M. Caravan Cities (Oxford, 1932).
 - Peters, F.E. Social and Economic History of the Hellenistic World, 3 vols, (Oxford, 1941).
 - Tarn, W.W. and Griffith, G.T. Hellenistic Civilization, 3rd ed. (London, 1959).
 - Tarn, W.W. Cambridge Ancient History cc. 12, 13 and 15 in Volume VI (Cambridge, 1927).
 - Toynbee, Arnold J. Mankind and Mother Earth (London 1976).
 - Ward- Perkins, J.B. Cities of Ancient Greece and Italy (New York, 1974).
 - Schubart, Wilhelm Die Griechen in Aegypten (Leipzig, 1927)



